رؤية العالم عند الطيب صالح
مقاربة في ضوء المنهج الأسطوري

د٠ هياء علي الشمري (*)

المقدمة :

إن نجاح العمل الأدبي يقاس أول ما يقاس بتعدد أوجه النظر إليه واختلافها، ووجهات النظر تلك إنما تكون من خلال مناهج مختلفة أو مداخل مختلفة، منها الاجتماعي، النفسي وغيرها من المناهج التي تسعى لتحليل نص معين، وكما ذكر أستاذنا د شكري عياد أن حقيقة العمل الأدبي واحدة وإن تعددت المداخل إليها.

ومن أراد " أن يدرس الأدب دراسة علمية، تعنى به من حيث هو أدب، لا من حيث هو وثيقة اجتماعية أو نفسية أو مظهر أسلوبي، فمثل هذا الدارس لا يبالي أن ينفذ إلى حقيقة العمل الأدبي من أي مدخل يراه مناسبا، بشرط أن ينتهي بنا إلى فهم لكيان العمل الأدبي، من حيث هو أثر فني يتألف من ألفاظ. واختيار المدخل المناسب أمر راجع إلى ثقافة الناقد وحسه التاريخي وفطنته النفسية، وربما كان بعد المدخل متناسبا مع عمق النظرة إلى العمل الأدبي والمقدرة على كشف أغواره "(١) والمقصود برؤية العالم هي نظرة الناقد إلى العالم بشكل عام بناء على ثقافته.

(*) أستاذ مساعد بقسم النقد الأدبي الحديث – كلية القانون الكويتية العالمية.

(١) البطل المعاصر في الرواية المصرية، د. احمد الهواري، القاهرة: دار عين للدراسات والنشر، انظر تقديم د. شكري عياد، ص ٧.

وقد اخترت أن أقدم تحليلا لنماذج نصية من تجربة (الطيب صالح)[١] الإبداعية في الرواية من (عرس الزين – مريود) ومحاولة النظر في رؤية الشخصيات المطروحة للعالم، وذلك من خلال المنهج الأسطوري. وقبل أن أبدأ في تحليل النصوص أود أن أقدم تأسيساً نظريا للأسطورة فهي " ليست مرادفا للخيال أو الكذب أو الإيهام، كما أنها ليست مقابلا للواقع، فهي بالنسبة لمعتنقيها واقع وحقيقة لا يتطرق إليهما الشك"[٢] غير أن الدكتور الحجاجي يرى أن علم الأساطير يتجاوز ذلك بكثير ليشمل أديان الإنسان القديم والحديث والمعاصر وإنسان ما قبل الكتابة وما بعده، ومجمل القول أن الأسطورة هي اعتقاد و إيمان الإنسان أو مجموعة/ مجتمع بكامله بعادات معينه تكاد تكون خارقة للطبيعة. أو من غير المعتاد عليها، فيألفها مجموعة من الناس من ثم تنتقل هذه الألفة إلى البقية، على الرغم من الرفض العقلي لهذا الاعتقاد في البداية، إلا أن الوقائع أحياناً، التي تحدث – والتي عادة تكون محض صدفة_ تجبر الإنسان على الاعتقاد بما هو غير منطقي، فتتكوّن أو تنشأ ما تسمى الأسطورة أو الاعتقاد الراسخ، وقد يمتد هذا الاعتقاد بالأسطورة إلى بعد جغرافي واسع، فتتكون بقعة جغرافية تؤمن بهذه الأسطورة. ومن الممكن أن تكون بقية البقاع الجغرافية لا تؤمن بذلك الاعتقاد، وهنا لا أقول بأن العقل البشري تدخل في رفض الأسطورة أو رفض الإيمان بها، ولكن تتوقف حدود الاعتقاد إلى هذا الحد.

---

(١) الطيب صالح أو عبقري الرواية العربية كما جرى بعض النقاد على تسميته، أديب عربي من السودان، اسمه الكامل الطيب محمد صالح أحمد، ولد علم ١٩٢٩م وتوفي في ٢٠٠٩م، للمزيد انظر معجم أدباء العالم، شوقي محمد عبود، وهران: دار المؤلف للطباعة والنشر، ص٢٤.

(٢) الطيب صالح صانع الأسطورة، د.أحمد شمس الدين الحجاجي، القاهرة: مجلة ألف، ص ١٦.

وقد استطاع الطيب صالح أن يستخدم الأسطورة بما هي انعكاس لتجربة إنسانية، حيث قدم واقعه بمعتقداته من التراث السوداني بشكل خاص والعربي بشكل عام في الأولياء وكراماتهم وبنى عليها كيان أسطوري في قالب روائي، كما أنه نجح في اختراق الواقع من خلال تأثره بنظرة الصوفيين إلى الوجود ومعجزاتهم فسلك سبيلهم، وذلك من خلال تصاعد الأحداث في مريود كما في عرس الزين، فالنّفس الصوفي والإيمان العميق بالأسطورة أو الاعتقاد بالكرامة والقدرة الخارقة للتنبؤ بالمستقبل، كانت حاضرة في نفس الطيب صالح، ويبدو أنها ترسخت منذ الطفولة حيث ظهرت شخصيات الطيب صالح أسطورية كما في (الحنين)، الذي ما إن يقول جملة واحدة حتى تقع ولو بعد حين، كما أن "طبيعة الموضوع هي التي تحدد نوعية المنهج"[١] الذي سلكه الطيب في عرس الزين، كما في مريود، وهو تقديم الكرامات كمعتقد راسخ في مجتمع ما.

ومن الملاحظ هنا أن هذه الرؤية الخاصة بالطيب صالح تصطبغ بخليط من الخيال والعقل الباطن والتاريخ الأسطوري لنهر النيل بغض النظر عن العقل الواعي ومنطق الحياة، فطول معاشرة الطاهر ود الرواس للنهر هيأته لسماع ما لا تسمعه الأذن ورؤية مالا تراه العين، وخصوصا أنه أظهر في شبابه أنه يمتلك قوة كونية خارقة، ولم يكذب على أحد طول حياته[٢].

**

(١) تكوين العقل العربي، د.محمد عابد الجابري، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية ص١٤٤.

(٢) انظر الأعمال الكاملة، الطيب صالح، إعداد أحمد محمود سعيد، دار العودة ص٢٦٤ و ص ٢٦٥ .

١-١ رؤية العالم من خلال منظار عرس الزين:

تدور الأحداث هنا في شمال السودان ويبرز الريف بشكل خاص في "عرس الزين"، حيث تنعكس معتقدات الشخصيات في كرامات الأولياء ومشايخ الطرق، ومن هؤلاء الأولياء " الحنين" الذي تنبأ بزواج الزين من نعمة. وحين مات الحنين استمرت كراماته وتحقق للقرية خير كثير فسمي ذلك العام بعام الحنين، ومن أبزر صفاته – أي صفات الحنين– أنه كان يقضي في القرية ستة أشهر يصلي ويصوم بها، ثم يذهب ويختفي بالصحراء ستة أشهر أخرى لا يعرف أحد عنه فيها شيئا، وهي من عاداته السنوية، وعلى الرغم من اختفائه لفترات طويلة، إلا أن تنبآته حاضرة بين الناس، وكأنها حاضرة عنه في غيابه، فتفوح رائحة وجوده بينهم حتى يقضي فترة انعزاله التام، أو وحدته، ليعود مرة أخرى حاملاً معه تنبآت جديدة يلقيها على أي شخص يقف أمامه ويتواصل معه، ولكن مع دراسة هذه الشخصية بينه وبين نفسه، ومن ثمّ تأتي النبوءة أو التوقع، والذي يسري بين الناس كاعتقاد، وعندما تتحقق، تصبح أسطورة، ليس ما تنبأ به ولكن الشخص صاحب النبوءة هو الأسطورة ذاتها، (الحنين).

أيضا في عرس الزين، شخصية الزين ذاتها هي أسطورية بشكل خاص، فهو إنسان ضعيف العقل، وبحسب العادات السائدة والاعتقاد الاجتماعي المتعارف عليه، فإن مثل هذه الشخصية لا تتزوج، وإن حدث وتزوجت، يكون الارتباط من نفس المستوى العقلي، ليتحول بنا الطيب صالح إلى نوع من **تلاقي** عدّة معتقدات مع بعضها البعض لتشكل نص روائي خاص:

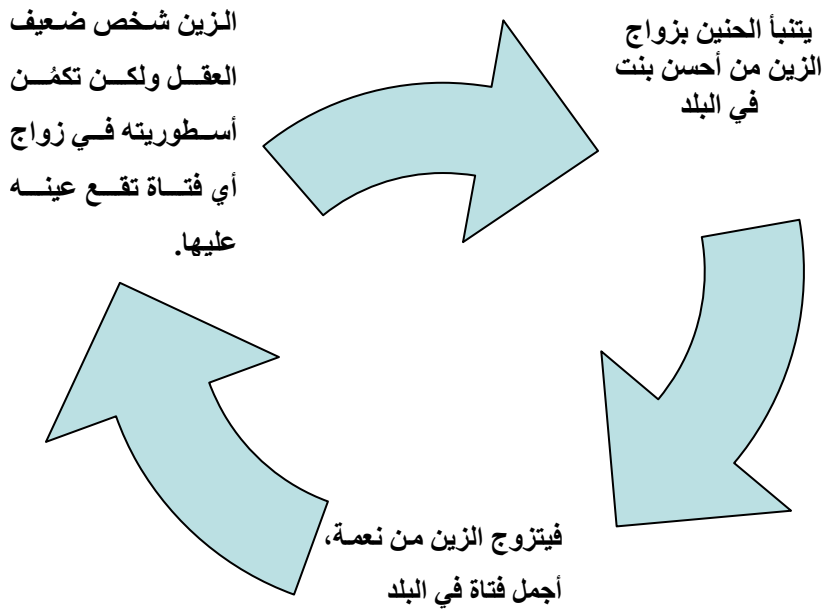

وهو عكس الاعتقاد السائد في أي مجتمع، بعدم توافق العقليات للارتباط بين العاقل والمجنون، الأمر الذي رسخ أسطوريته (أسطورية الزين) في عقول الناس من حوله وبأنه مبروك! بمجرد زواجه من فتاة عاقلة، في المقابل يزعم البعض في القرية أن الحنين من "أهل الخُطوة" حيث يرى في أماكن متباعدة في زمن قياسي في محاولة لتصوير الصفات الأسطورية أو الخارقة للطبيعة البشرية المعتادة، وتعبير "أهل الخطوة" بمثابة الاعتقاد أو الأسطورة على قدرة إنسان الخارقة للطبيعة؛ كما ويزعم آخرون أنه يجتمع في الصحراء مع أولياء آخرين ينفق وقته معهم في العبادة والتأمل.

وصديق" الحنين" الوحيد في القرية هو بطل الرواية، إنه "الزين" الذي يعده الحنين "مبروكاً"، ويَعده بأن يتزوج من "أحسن بنت في البلد دي"[١] فتتحقق النبوءة فعلا ويتزوج الزين بنعمة ويزيد بذلك إيمان أو اعتقاد الناس بصحة أسطورة (الحنين). والملامح الخُلُقيّة للزين تفصح عن شخص قبيح الوجه، قبيح التكوين والهيئة، كثير العبث والمزاح مع نساء القرية، بعيد عن التهذيب يكاد يكون مهرجاً، في مقابل نعمة الفتاة الحكيمة، الجميلة، فكيف له أن يتزوجها؛ إنه اعتقاد بعيد إلا على الحنين الذي تنبأ باقترانهما، اقتران ضدين[٢]. وهنا يربط الطيب صالح صورة المرأة (نعمة) " بالمناخ الاجتماعي الذي ظهرت فيه، يوضح لنا كيف يعكس الأديب حركة الواقع وموقفه"[٣] من زواج امرأة عاقلة وجميلة من شخص ضعيف العقل.

كان ميلاد الزين على عكس ميلاد كل الأطفال، فقد ولد ضاحكا، ويتمتع بقوة يعتقد أهل القرية أنها "خارقة ليست في مقدور بشر"[٤]، الأمر المقابل لصورة الحياة طوال فترة حياة الزين، فالأجواء داخل قريته يختلط فيها المدّاحون في ذكر الرسول – صلى الله عليه وسلم– والراقصات اللاتي يرقصن على الموسيقى والأغاني لنجد أنفسنا أمام مشهد من مشاهد الحياة التي يختلط فيها كل شيء

(١) الأعمال الكاملة، الطيب صالح، إعداد أحمد محمود سعيد، دار العودة، ص ٢٢٥.

(٢) يذهب روجر ب.هينكل في كتابه (قراءة الرواية مدخل إلى تقنيات التفسير) إلى أن (أبرز دور أو وظيفة تؤديها الشخصيات الثانوية تتمثل في أنها هي التي تعمر عالم الرواية) وهو الأمر الذي قام به كل من (الحنين) و (نعمة) في عرس الزين؛ انظر قراءة الرواية مدخل إلى تقنيات التفسير، روجر ب. هينكل، ترجمة صلاح رزق، القاهرة: دار غريب، ص١٩٠.

(٣) صورة المرأة في الرواية المعاصرة، د.طه وادي، القاهرة: دار المعارف ص ٤٢.

(٤) الرواية العربية ببلوجرافيا ومدخل نقدي، حمدي السكوت، المجلد الأول مقدمات ومدخل نقدي، القاهرة: الجامعة الأمريكية في القاهرة، ص ١٥٧–١٥٨.

وخصوصا في مناسبة "عرس الزين" نفسه، ليكون الدرس الذي يدعو إليه الخطاب الروائي هنا بأن الحياة ليست نغماً رتيبا باعثاً للملل، ولكنها نغمات متشابكة ونهر متدفق، ليظل " الزين" طوال الرواية –على حد تعبير علي الراعي– يزغرد للجنس والحياة و الإخصاب، فالزين ما إن تقع عينه على فتاة جميلة، اكتملت أنوثتها،حتى يصيح " الزين مكتول" أي قتيل فلانة أي قتلته فلانة، فيتضاحك الناس من حوله، لضعف عقله بذلك التصريح، إلا أن الأمر الغريب في ذلك أن الفتاة المنادى باسمها تتزوج على الفور؛ ولما تكرر هذا أدركت نساء القرية أن الزين سبب رئيس لزواج بناتهن فيتجهن إلى استدراج الزين لرؤية بناتهن عسى أن يصيح باسم واحدة منهن فتتزوج وذاك كله بدون غضب الرجال في القرية، لأنهم على يقين تام بأن الزين ضعيف العقل ولا داعي من التخوف منه.

وكما ذكرت سابقا، فإن الزين قبيح الهيئة، ولكن كان امتيازه كامن في صفاته الداخلية، فتحت هذا السطح الخارجي الخِلقي تحيا نفس خيّرة متأهبة للتضحية، ومساعدة من يستحق الرعاية، وجوهر شخصيته يؤكد على فرحة الدائم بالحياة واتساع قلبه الحنون لكل من حوله مهما كانت نظرة المجتمع له، لنخلص إلى حقيقة أن من تجليات الخطاب الروائي في عرس الزين بأن نظرة المؤلف تؤمن بأن" وراء ما نراه أمامنا من أشياء ... أشياء أخرى وأشياء. وأن أساليب التعامل مع هذه الأشياء تتراوح بين التغيير بالوسائل المادية، والتأثير بقوة الروح. ذلك العالم الخفي الذي يتداخل مع عالمنا المادي، ويتغلب عليه أحياناً، رغم عدم التفاتنا إليه الالتفات الواجب"[1] من ناحية، كما أنه يرى "في الواقع الذي يكتب فيه مماثلة للواقع الثقافي المتفاعل معه"[2] داخل مجتمعه، من ناحية أخرى.

---

(١) الرواية في الوطن العربي، د. على الراعي، القاهرة: دار المستقبل العربي، ص ٥٣١.

(٢) الرواية والتراث السردي، د. سعيد يقطين، القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع ص ٢١٩.

وإذا كان حدوث ما هو خارق للطبيعة أصبح مألوفاً في مجتمع ما، فإنه الأمر ذاته في بقية المجتمعات، أي أن الطيب صالح أراد أن ينقل لنا حالة الأريحية والقبول التي يكتسي بها المجتمع ذاته الرافض في مراحل أخرى لمعتقد معين، بمعنى أنه نفس المجتمع الذي كان يرى استحالة زواج نعمة من الزين، هو ذاته الذي تقبّل بل فرح أعضاءه بهذا الزواج، وكأن المؤلف يقول للمتلقي بأن أي مجتمع رافض لفكرة يراها غير عقلانية ويستريح لهذا الرفض، سيأتي يوم ويتقبل هذه الفكرة من خلال شيء بسيط غير متوقع، (اعتقاد أسطوري). ينافي مفاهيم العقل والمنطق، أي أن بعض الأمور التي تكون من ضمن العادات والتقاليد المتعارف عليها، قد تتحول بين ليلة وضحاها من الرفض إلى القبول.

وقد يلجأ المؤلف أحيانا إلى التطرف في وصف المعتقد، حتى يخلق في عقل القارئ حالة الاستحالة واستبعاد حدوث الأمر، كأن يصف **الزين** بالبلاهة والقبح وغيرها من الصفات السلبية فيحشدها بشكل واضح ويكررها في كل حوار تظهر فيه شخصية الزين، في المقابل يقدم عدداً من الصفات النبيلة والحسنة التي يصف بها شخصية **نعمة**، فهي حكيمة، جميلة وعاقلة .. إلخ ، وغيرها من الصفات المعاكسة تماماً لصفات **الزين**، فتتشكّل فكرة الرفض في عقل المتلقي، واستبعاد ارتباط شخصيات متنافرة في الصفات، طوال فترة تسلسل الأحداث، حتى يحدث ما هو غير متوقع، زواج الزين ونعمة، فتتشكل الصدمة في عقل القارئ كما انصدم المجتمع من ذلك الزواج، وكأن الطيب صالح هنا حوّل المتلقي إلى أن أصبح هو المجتمع' فبعد أن اقتنع ورسخ في باله استحالة ذلك الارتباط من خلال فعل تكرار للصفات التي تتسم بها كل شخصية، حتى أتت الصدمة في حدوثه بالفعل، وهنا تكمن إبداعية الطيب صالح في جذب المتلقي ليندمج مع النص ويصبح جزء منه.

١-٢ جدلية العقل والحِكمة في تكوين مُعتقد:

قد يكون من العسير على المؤلف أو الراوي أن يقدم صورة مجتمعه إلى العالم بشكل جريء، أي أن الطيب صالح قدّم مجتمعه المؤمن بهذه الخرافات أز الأسطورة بكل أريحية، بحيث صوّر عمق الاعتقاد لديهم، بشكل موضوعي بعيداً عن التنميقات والزخارف التي ربما يلجأ إليها أحياناً بعض الروائيين لتجميل مجتمعهم أو خوفاً من نظرة المتلقي العالمي له.

ولمّا كان المطلوب من الراوي أن " يختفي كليّة وراه عمله"[١]، فإن الطيب صالح اختفى بالفعل وراء عمله، ولكن تظهر لمحات منه في كل جانب من جوانب شخصياته، فالإيمان العميق لدى المجتمع بقدرة الحنين وكأن الطيب صالح يريد من جمهور نصّه أن يؤمن بأحداث روايته، وإن كانت المستويات الفكرية لجمهوره ربما تكون مختلفة، إلا أنه كالحنين لا ينظر إلى المستوى الفكري أو العقلي للشخص أمامه بقدر إيمانه بقدراته الخارقة، فالحنين عندما تنبأ للزين، لم ينظر إلى ضعف عقله، ولكن قدّم إليه نبوءته بكل موضوعية.

ولا يختلف الأمر عند الزين مثلاً، فهو أسطورة بحد ذاته كما ذكرت مسبقاً، فعلى الرغم من ضعف مستواه الفكري، إلا أنه استطاع أن يجعل من نفسه أسطورة، بغير قصد منه أو تعمد لجذب الانتباه، فلو أراد فعلاً جذب الانتباه منذ بداية الحكاية، لما قال مقولته الشهيرة (الزين مكتول)[٢] عند رؤية كل فتاة جميلة،

---

(١) نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة، د. نبيلة إبراهيم، القاهرة: مكتبة غريب للنشر ص١٧

(٢) وردت هذه الجملة على لسان شخصية الزين وتكررت طوال أحداث الرواية، ومن مواضعها: (الزين مكتول في حوش محجوب)، (الزين مكتول في حوش العمدة)، (أنا مكتول في فريق القوز)، (يا أهل الفريق.. يا ناس الحلة أنا مكتول)، انظر الأعمال الكاملة للطيب صالح، مصدر سابق، ص١٢١، ص١١٩، ص١٢١وص١٢٥.

ولكن إطلاق هذا القول كان فطرياً، غير آبه برأي الآخرين فيه، لذلك أقول بأنه لا يتعمد جذب الانتباه.

وقد يخطر في بال القارئ عند التقاءه أول مرة مع شخصية الزين، بأنها شخصية سلبية[١] أو محايدة أو ربما مملة، لهيامه الدائم بين الناس بغير هدف، ولقبوله الدائم سُخرية الصبيان في القرية وضحكهم عليه، ولتعمد الراوي أسلوب التكرار في وصف ملامحة الشكلية[٢] والمعنوية بشكل سلبي، كالقبح وغيرها من الصفات السيئة، إلا أنه ومع توالي الأحداث داخل الرواية، تتفكك تلك الصفات بل وتذوب تماماً لتتحول شخصية الزين من الشخصية السلبية إلى شخصية إيجابية، مقبلة على الحياة وخاصة بعد إطلاق نبوءة زواجه، أيضاً هذا التحول إلى الإيجابية ظهر عندما كشف الراوي للمتلقي الجانب الداخلي للزين، فهو شخص حنون، محب لمساعدة الآخرين على الرغم من ظاهره الغير مبالي بالآخرين بسبب ضعف قدراته العقلية.

---

(١) القصد من الشخصية السلبية هنا، هو التواجد السلبي أو المؤذي وليس الشر والمكيدة، للمزيد حول الشخصية السلبية في الرواية العربية انظر نقد الرواية في الأدب العربي الحديث، د. أحمد الهواري، القاهرة دار عين.

(٢) من الصفات التي ذكرها الطيب صالح عن شخصية الزين في قوله: (كان وجه الزين مستطيلاً، ناتئ عظام الوجنتين والفكين وتحت العينين. جبهته بارزة مستديرة، عيناه صغيرتان محمرتان دائماً، محجراهما غائران مثل كهفين في وجهه. ولم يكن على وجهه شعر إطلاقاً..) ، (تحت هذا الوجهة رقبة طويلة. (من بين الألقاب التي أطلقها الصبيان على الزين " الزرافة"). والرقبة تقف على كتفين قويتين تنهدلان على بقية الجسم في شكل مثلث، الذراعان طويلتان كذراعي القرد... فالزين لا يحب لبس الأحذية والزين يذكر كل جرح من هذه الجروح... الفرجة بين الإصبع الأولى والثانية) انظر الأعمال الكاملة للطيب صالح، مصدر سابق ص١١٧.

وهنا يحاول الطيب صالح أن يركز على تكوّن الأسطورة أو المعتقد من خلال الأشخاص بغض النظر عن كون الشخصية سلبية أم إيجابية، قبيحة أم جميلة، حكمية أم ضعيفة العقل، فإذا نظرنا إلى شخصية الحين سنجدها شخصية رزينة، متدينة، متصوفة، قليل الكلام، حكيم، وهو في الوقت ذاته أسطورة لقدرته على التنبؤ بأحداث مستقبلية غير منطقية، أولا يقبلها العقل البشري، وعلى الرغم من ذلك يصدقه المجتمع بل ويؤمن بما يقوله[1] ، في المقابل هناك (الزين) القبيح، ضعيف العقل، كثير الكلام، دائم الوجود بين الناس، الذي يجري ويلعب في ساحات البلد وهو في الوقت ذاته أسطورة، لقدرته على التنبؤ بزواج أي فتاة تقع عينه عليها؛ هو لم يصرح بزواج الفتاة مباشرة، ولكن من خلال جملة معينة يطلقها فيصبح زواج الفتاة المعنية أمر محسوم، فصدّقه المجتمع وآمن بقدراته، بل إن النساء أصبحن يضعن بناتهن أمام الزين حتى يتزوجن[2].

ولكن الاختلاف الذي وضعه الطيب صالح بين أسطورة الحنين وأسطورة الزين، هي في الحديث أو الكلام، فعلى الرغم من أن كلام الزين طوال الوقت غير مفهوم لقلة قدراته العقلية، بل أنه كلام يدعو للسخرية، وقد سخر منه بالفعل

(١) يصّور الطيب صالح إحالة الاستحالة، استحالة الارتباط بين الزين ونعمة، على لسان امرأة من أهل القرية فيذكر (لم تصدق آمنة أذنيها، وسألت حليمة للمرة العاشرة!!) انظر الأعمال الكاملة للطيب صالح، مصدر سابق ص١٢٥.

(٢) يذكر الطيب صالح: (فقد فطنت أمهات البنات إلى خطورته، كبوق يدعين بهل بناتهن، في مجتمع محافظ، تحجب فيه البنات عن الفتيان، أصبح الزين رسولاً للحب، ينقل عطره من مكان إلى مكان) انظر الأعمال الكاملة للطيب صالح، مصدر سابق ص١٢٢ وفي موضع آخر (فقد أصبحت أمهات البنات يخطبن وده ويستدرجنه إلى البيوت فيقدمن له الطعام، ويسقينه الشاي والقهوة) انظر الأعمال الكاملة للطيب صالح، مصدر سابق ص١٢٣.

الناس من حوله، إلا أن نبوءته غير مباشرة بمعنى اطلاق جلمة (الزين مكتول) والتي تتنبأ بزواج الفتاة، هي مناسبة لشخصيته، أي أنها نبوءة غير مباشرة، (فالزين مكتول) جملة مجازية غير واقعية لحدث القتل الذي يقع على الزين لافتتانه جمال أي فتاة يراها، في مقابل الكلام الواضح والصريح من الحنين، وهو ما يناسب شخصيته الحكيمة والواضحة، فعندما تنبأ بزواج الزين، صرّح بجملة واضحة متكاملة، غير مجازية.

ولعل المهمة التي أراد أن يقوم بها الطيب صالح هنا، هي توضيح مدى فاعلية المعتقد في مجتمع ما، سواء كان هذا المعتقد نشأ من عقلية ضعيفة أم عقلية رزينة.

وإذن، فالإيمان بشيء خارق للعادة واقع، بل ومستمر بغض النّظر عن مصدره، سواء كان من شخصية سلبية أم إيجابية، حكيمة أم ضعيفة العقل.

ولمّا كان يجب على الراوي أن يخلق نوعًا من التوازن بين هذين الشكلين من صُنّاع الأسطورة، جاءت شخصية **نعمة** كرُمانة الميزان التي تفصل بين ضعف العقل والحكمة، فهي من وقعت عليها نبوءة الحنين لتتزوج من الزين الذي لم يكن يتصوّر حدوث هذا الارتباط.

وبغض النظر عن إيجابية شخصية **نعمة** أو سلبيتها، فهي شخصية من الشخصيات التي وضعها الروائي لعمل اتزان بين صورة مُعتقدين، ولا أقول بذلك أنها شخصية ثانوية، بل إن وقوع النبوءة عليها جعلها شخصية أساسية في هذا العمل، حتى تتزن الأمور وتتضح للجمهور القارئ، بل ويتأطر مفهوم الأحداث والشخصيات الخارقة للعادة على الرغم من خلفيتها الثقافية أو الاجتماعية.

٢-١ مفهوم الأسطورة في (مريود) يتجلى:

العالم الأسطوري عند الطيب صالح واسع، رحِب، تكشف في عرس الزين وها هو الآن يتكشف مرة أخرى في مريود، ففي قصة "ود حامد" أعرض محيميد عن العلوم التي تلقاها بالمدينة وأعرض عن ملذات الدنيا، وبدأ يروض نفسه على اللحاق بقافلة المتصوفين، وبفضل ذلك توطدت علاقته بالطبيعة، وكأنه يستمد طاقته منها، (الأشجار، الماء، الهواء) كل هذه العناصر الطبيعية أسهمت بشكل غير مباشر في تكوين عقليته وحوّلته إلى ما هو عليه؛ فشعر بأن "عصارة الحياة كلها في ود حامد"[١] فعندما شاهد النخلة التي زرعها بنفسه "نقر جذعها برفق بعصاه كأنه يؤاسيها وحياها مودعا بصوت مسموع"[٢] إيمانا منه "بأنها تعلم سره ونجواه"[٣] "و أصبح يسمع ضحكة جدة ويرى وجهه واضحا"[٤] كلما "مسّ بعصاه جذوع الأشجار"[٥] وعليه يكون ذلك تصريح بارتباط رؤيته بالنّظرة الصّوفية، من هنا فإن الشجرة أو شجرة الحياة رمز لتلك الهجرة الكبرى (طقس العبور)، أي لنضج الشخصية. فبهذا الرمز المعروف عند العديد من الحضارات، كرمز أو دلالة على الكمال و النضج و الاستمرار وهو الأمر الذي ذكره كذلك د.على زيعور[٦] "وخلاصة القول أن الشجرة واقعاً كانت أو رمزاً صورة حية من الوجود. فهي كالإنسان عالم صغير تجتمع فيه العناصر الأربعة من تربة وماء وهواء

(١) الأعمال الكاملة، الطيب صالح، إعداد أحمد محمود سعيد، دار العودة، ص ٤١٢.

(٢) المصدر نفسه ص٤١٧.

(٣) المصدر نفسه ص ٤١٧.

(٤) المصدر نفسه ص٤١٢.

(٥) المصدر نفسه ص ٤١٢.

(٦) انظر الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم، على زيعور، دار الأندلس، بيروت.

وبواسطتها يقتدحون النار. كما أنها بخضرتها الزاهية الدائمة رمز الحياة والتجدد والخلود" [١] .

ولعل الناظر هنا إلى أسلوب الطيب صالح في خلق هذا الجو المتصوّف، يحس بأن الطيب ذاته كان محباً للطبيعة أكثر من شخصياته ومتعلق بها هذا التعلق الذي أمكنه أن يقدم للمتلقي صورة ارتباط شخصية بعيدة عنه بالطبيعة، فقد جعل " نفسه شاهداً ومؤرخاً لرصد الحركة الاجتماعية التاريخية بمجملها، وكذا الشهادة على ذاته المفردة، ولكن من خلال تشابكها بالجماعة أو باشتباكها معها."[٢]

وقد تذكر محيميد أن أمواج النيل غمرت ذات يوم صديقه محجوبا ومنعت رفاقه من إنقاذه من الغرق. وعندئذ شاهدوا الطاهر ود الرواس يقفز من الشاطئ وخيل لهم "انه لم يكن يسبح في الماء، بل كان يطفو على أشعة الشمس الغاربة. انتشل محجوب من الماء ورفعه بيد واحده"[٣] وبذلك ارتبطت في نظر محيميد معجزة الطاهر ود الرواس بمعجزات جده، ضوء البيت وابنة بلال وآمن بأنه شاهد – فعلاً– تلك السمكة/ الجنية وفهم لغتها، تلك التي رآها في الماء وصار يتحدث معها ويضحك ليخبرها بأنه قد صاد عمها وجدتها منذ عشرات السنين إلى جانب عدد كبير من أهلها.

وهنا الاعتقاد أصبح راسخاً، واعتقدت الشخصية بأسطوريتها وآمنت بقدراتها الخارقة، ومن ثمّ انتقل هذا الاعتقاد إلى بقية الناس، وكأن الطيب صالح يقول هنا

---

(١) موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، محمد عجينة. بيروت: دار الفارابي، المجلد الأول ص ٢٨٠.

(٢) التحولات في الرواية العربية، د. نزية أبو نضال، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ص١٣.

(٣) الأعمال الكاملة، الطيب صالح، إعداد أحمد محمود سعيد، دار العودة، ص ٤٣١.

بأن الإنسان عندما يؤمن بنفسه، فإن مسألة إيمان الآخرين به، ماهي إلا مسألة وقت، وسيؤمنون به.

ففي بداية الأمر لم يتصور محيميد بقدرته الخارقة أو لم بخطر في باله بكل بساطة، إلا أن الأمور عندما تكوّنت أمامه، بدأ يعتقد بذلك وآمن بأسطوريته.

ومع ظهور جيل جديد سرعان ما لاحظ الراوي أن واقع القرية قد تبدل وأن الشك في الماضي قد تسرب إلى عالم القرية، فمن شباب القرية من ارتاب في معجزات الصوفية، ومنهم من أعرب عن ريبه في تواصل الكرامات بسخريته من سعيد عشا البايتات. فقد ضحك أحمد إسماعيل عندما قص عشا البايتات ما شاهده في حلم اليقظة و اتهمه بالسكر، بل أن الطاهر ود الرواس الذي أنبأ بكرامات والده بلال، وأقسم أنه شاهد السمكة/ الجنية وفهم لغتها قهقه ضحك عندما سمع قصة عشا البايتات واعتبر أن ما شاهده أضغاث أحلام، الأمر الذي يضعنا أمام قناعة كبرى وهي التخبط بداية في فهم واستيعاب مفهوم الكرامة عند جيل صاعد وطريقة السخرية من أسلوب سرد المعتقد عند إنسان وكيف أن إيمان الإنسان بشيء والتصريح به أمام مجموعة أخرى ليست على معرفة تامة بذلك المُعْتَقَد، قد تشكل نوعاً من الخطر على المُعْتَقِد أو المؤمن بالأسطورة، و أقول خطر، أي أنه قد يتعرض لمثل تلك السخرية و من ثمَّ التأثير عليه شخصياً، فمحيميد آمن و بشكل جدي بأن تواجده المتواصل أمام النيل جعله يتصوف أو يختار الصوفية مذهباً له ونمطاً لحياته.

ولعل الطيب صالح هنا يريد أن يتناول الاعتقاد (الأسطورة) من كل زاوية بحيث لا يترك زاوية خالية أو غير واضحة:

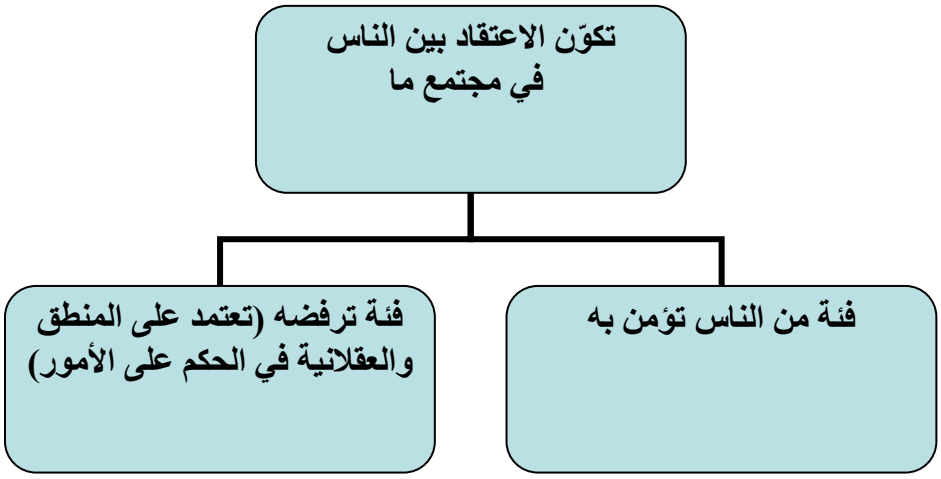

بمعنى أنّه قدّم الأسطورة أو الاعتقاد من خلال المجتمع بشكل عام وما يؤمن به من خلال نظرة عامة تكونت في تظافر الشخصيات مع بعضها البعض، فقدمت سوياً الاعتقاد العام بشيء محدد (سواء شخصية معينة أو فكرة سائدة) ومن ثم انتقل بنا كمتلقين لنصوصه، إلى تقديم الشخصيات التي تؤمن بالأمور الخارقة للطبيعة، بشكل سريع بدون اللجوء إلى التحليل المنطقي أو التفسير العقلاني للأمور، أي الشخصيات التي من السهل أن يؤّثر بها، وكأن هذه المجموعة من الناس، عطشى لشيء خارق للطبيعة يكسر حاجز الرتابة اليومية في حياتها، لذلك نجدها سريعة التصديق، لحد الدروشة، ، وفي الوقت ذاته قدّم لنا من لا يؤمن بذلك الاعتقاد، أو الفئة الرافضة للإيمان بما هو خارق للطبيعة البشرية أو الأمور التي يرفضها التحليل المنطقي العقلي، وهي فئة يصورها

الطيب صالح بأنها أحياناً تلجأ إلى نوع من السخرية كمهرب أو تبرير لهذا الرفض، وأحيان أخرى تكون هذه المجموعة ربما، متطرفة في رفضها، بشكل شرس، الأمر الذي يخلق حاجز بينها وبين الفئة الأخرى المؤمنة بالأسطورة، لنجد أننا بين نوعين من البشر في مجتمع واحد، ولكن الغلبة دائما وأبداً -كما صوّرها الطيب صالح- تكون للفئة المؤمنة بالأسطورة.

٢-٢ جدلية نشأة المُعتَقَد من خلال الطبيعة:

يقدم الطيب صالح رواية مريود بناء على فكرة أن الإنسان كائن اجتماعي، ومن ثم فإنه لابد أن يكون لهذا الكائن، بطبيعة الحال، مثل أعلى في الحياة، الأمر الذي جعله يقدم إلى جمهور القراء شخصية مريود وعلاقتها بشخصية الجَد في إطار اجتماعي، حيث اكتمل عنصر الزمان والمكان في أحداث الرواية الواقعة في الريف السوداني.

فاستخلص الطيب صالح من فكرة المثل الأعلى، مبدأ الارتباط وكوّن منه فكرة أخرى وهي الارتباط بين الإنسان والطبيعة، وهل لهذا الارتباط تأثير على الإنسان، أم لا. فحاول أن ينسج خيوطها في عقلية المتلقي، وكيفية تكوّن علاقة مباشرة بين الإنسان والطبيعة، وهل العلاقة المباشرة أو التواصل المباشر بين الإنسان وعناصر الطبيعة، من ماء وخضرة وهواء، يحتاج إلى وسيط ثالث حتى يخرج الإنسان بنتائج من هذا التواصل المباشر أم لا.

وعلى الرغم من وجود هذه الفكرة بين الأفكار الأخرى[١] التي عرضها الطيب صالح من خلال روايته إلا أنها تكاد تكون فكرة ثانوية في مقابل تقديم فكرة الاعتقاد بشيء خارق للعادة، كما عرضها لنا في رواية عرس الزين.

(١) فكرة المثل الأعلى وفكرة الارتباط بالطبيعة.

ولعل من النتائج التي عرضها الطيب صالح، من تظافر الإنسان بالطبيعة واندماجه معها، هي حالة التصوّف التي وصلت إليها الشخصية الرئيسية في الرواية، وما ترتب عليها من وضوح الرؤية لديه، في بيئة طبيعية هادئة تعمّها السكينة.

فيقول الطيب صالح في بداية مريود : "ملأ صدره بالهواء ، وترك وجهه يغتسل بنسيم الفجر . لكن روحه لم تنتعش. تريث قبل أن ينحدر في الأرض المسواة الممتدة، وراءها غابات النخل، ووراء ذلك النهر، يلوح هنا وهنا بين فرجات الشجر. المنظر، كأن محيميد يراه آخر مرة. وجهه متوتر كأنه يقاوم رغبة جارفة بالبكاء. أنظر يميناً. هناك. أين غابة الطلح الكثة التي كانوا يلعبون فيها أيام الطفولة؟ رائحة البرم، زهر الطلح، خصوصاً أيام الفيضان. وهناك عند منعطف الدرب حذاء الجدول الكبير كانت تشمخ شجرة حراز ضخمة معرشة، تلمع ثمارها الصفراء كأنها حلقان الذهب ذلك الماء كان له طعم آخر. بلا غطاء، ذلك السبيل، عليه قرعة تتأرجح فوق الماء، تضرب فم الزير يسرة ويمنة، يشرب منه الغادي والرائح. من أقامه؟ لا أحد يذكر. ولكنه لم يعدم أحدا يملأه صباح مساء. طعم الجلد المدبوغ، طعم الماء في القربة المدلاة من الشعب في سقيفة جده. وطعم ماء النيل أيام الفيضان، طعم الأخشاب المبتلة، وأوراق الشجر، والطين. طعم الموت. صافي في أماكن الرمل، عكر في محلات الطين"[1].

والسؤال الذي يتبادر إلى ذهن القارئ الآن، هل للطبيعة غير الناطقة، دور في خلق الأسطورة، أو خلق الأحداث المنافية للعقل؟ أم أن هذه الأسطورة تتشكل وتتكون من خلال اتصال الإنسان المباشر بالطبيعة؟ أم هل المجتمع ونظرته للإنسان هي من تجعله يُكوّن الأسطورة من نفسه؟!.

(١) الأعمال الكاملة للطيب صالح، مصدر سابق ص٢٥٣.

وقد يكون الطيب صالح قد أسهب بشكل جميل وسلس في لغة الوصف هنا للطبيعة، فوصف الريح و الماء والخضرة وغيرها من المظاهر الطبيعية بشكل شفاف رقيق، بل وجعلها صوراً ناطقة بالهدوء و السكينة، وكأنه يقول للجمهور القارئ بأن الطبيعة نقية، هادئة وبريئة[١]، واتحاد الإنسان معها، ذلك الكائن المليء بالأفكار و الأحاسيس و الأحداث وغيرها من معطيات الحياة التي جعلته على النقيض تماماً لهدوء الطبيعة من حوله، في محاولة منه لتقديم هذا التوازن بين الإنسان و الطبيعة وكأن الإثنين يكملان بعضهما البعض، بل أن درجة النقاء في الإتحاد بينهما هي ما تجعل الغير معقول، معقولاً[٢].

وقد يخطر في بال الجمهور أن الطبيعة التي استخدمها الطيب صالح في مريود هي رمز لفكرة معينة أراد أن يقدمها كراوي إلى جمهوره المتلقي، ولكن الناظر نظرة المتفحص لنص مريود، سيعلم بأن هذا الوصف المسهب للطبيعة الذي قدمه الطيب للريف السوداني ومظاهر الطبيعة، هو محاولة لنفي فكرة وجود رمزية في الطبيعة فقط لمجرد ذكرها، ولكن المراد من وصف الطبيعة هنا، هو اللجوء إلى كينونتها العادية وتقديم فكرة قوتها من خلال نقاءها وبساطتها.

نعم، لنقاء الطبيعة وهدوءها قوة، تتجلى هذه القوة عند اتحادها مع الإنسان أو عندما يتصل الإنسان معها بشكل مباشر بعيداً عن صخب الحياة، ومشاكلها.

---

(١) من صور رقّة الطبيعة التي عرضها الطيب صالح : (هبّت من الشرق هبوب صغيرة دافئة أحدثت جلبة في الماء وبين أغصان الشجر لم تلبث طويلا حتى هدأت) الأعمال الكاملة للطيب صالح، مصدر سابق ص٢٦٧

(٢) وهنا تحصل الأحداث الخارقة للطبيعة.

هذا الاتصال له نتائج خارقة للعادة، غير مألوفة وغير منطقية، تسمى أسطورة، ومن ثم اعتقاد سائد بين الناس(١).

إذن وكما وضّح الطيب صالح، في عرس الزين أصل الاعتقاد وبأنه لا يهم صدوره أو نشأته من شخص ضعيف العقل أم رزين(٢)، فإنه يقول لنا هنا في مريود بأن الأسطورة أو الأحداث الخارقة للعادة غير مقتصرة على الأفراد فقط بل أيضاً للطبيعة دور مهم في خلق مثل هذه الحالات الخارقة للعادة أو التي يرفضها العقل.

وربما كان ذهاب الشيخ الحنين لفترات طويلة وسنوات كان يغيب فيها، ماهي إلا سنوات من اتصاله مع الطبيعة في هدوء وسكينه جعلت منه شخصية تتنبأ بالمستقبل كما حدث مع الشخصية الأساسية التي قدمها الطيب صالح في مريود والتي أصبحت أسطورية بفضل اتصالها بالطبيعة لفترات طويلة.

وعلى الرغم من عدم انعزالها التام عن البشر كما فعلت شخصية الحنين في عرس الزين ، إلا أنها كشخصية روائية استطاعت أن تقدم دوره من خلال تظافر عدة أفكار خلالها، فالشخصية " تكون واسطة العقد بين جميع المشكلات الأخرى؛ حيث إنها هي التي تصطنع اللغة، وهي التي تبث أو تستقبل الحوار، وهي التي تصطنع المناجاة (Le monologue iterieur)، وهي التي تصف معظم المناظر (إذا كانت الرواية رفيعة المستوى من حيث تقنياتها' فإن الوصف نفسه لا يتدخل فيه الكاتب؛ بل يترك لإحدى شخصياته إنجازه..) التي تستهويها،

(١) حتى يوضّح الطيب صالح مدى اعتقاد الناس في مجتمع ما لشيء خارق، جاء هذا الحوار على لسان الراوي : (لو أن سعيد عشا البايتات قال لنا هذا الكلام لضحكنا وقلنا كلام خارم بارم، ولو حدثنا به أحمد أبو البنات لقلنا حديث سكر، ولكن الطاهر ود الرواس طول حياته لم يقل إلا كما رأى وسمع) الأعمال الكاملة للطيب صالح، مصدر سابق ص٢٦٤.

(٢) للمزيد انظر البحث نفسه في ١-٢ جدلية العقل والحِكمة في تكوين مُعتقد.

وهي التي تنجز الحدث، وهي التي تنهض بدور تضريم الصراع أو تنشيطه من خلال سلوكها وأهوائها وعواطفها، وهي التي تقع عليها المصائب، أو تشتار النتائج؛ وهي التي تتحمل كل العقد والشرور وأنواع الحقد واللؤم فتنوء بها، ولا تشكو منها، وهي التي تعمر المكان، وهي التي تملأ الوجود صياحاً وضجيجاً، وحركة وعجيجا. وهي التي تتفاعل مع الزمن فتمنحه معنى جديداً. وهي التي تتكيف مع التعامل مع هذا الزمن في أهم أطرافه الثلاثة: الماضي، والحاضر، والمستقبل"[1].

**

(١) في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، د. عبد الملك مرتاض، الكويت: مجلة عامل المعرفة (ديسمبر ١٩٩٨) ص١٠٣-١٠٤.

الخاتمـة

لعله قد اتضح في متن هذه الدراسة، مدى التمركز حول محورين أساسيين فقط، في محاولة للتركيز على فهم رؤية الطيب صالح لمعتقد الأسطورة وتفكيكها، أو ما هو شائع في مجتمعه فأثر فيه، ليقدم للمتلقين نصوصًا تصرخ بالمعتقدات الراسخة والإيمان بها على الرغم من دخول العلم والتطور ولو بشكل بسيط، وكأن الطيب صالح هنا يوجهه انتباه المتلقي إلى غلبة الإيمان الداخلي الراسخ على أي تطور أو علم يصل إليه البشر. فشخصية المبروك على الرغم من بساطتها الشديدة في الحياة، كما صوّرها الطيب صالح، إلا أنه في بعض الأحيان تأتيه نفحات عقلانية تجعله يصحو ولو لدقائق معدودة، ولكن يعود لتلك السذاجة والبلاهة التي أسهم أهل البلد في زيادتها، بسبب تشجيعهم لها بشكل غير مباشر، واعتقادهم على سبيل المثال بسرعة زواج الفتاة ما إن ينظر المبروك إليها. الأمر ذاته في مريود، فالأسطورة حاضرة، والإيمان الداخلي بها راسخ، على الرغم من نضح الشخصيات البيّن.

من خلال هذه الدراسة قدمت الباحثة بشكل مركز مقاربة في ضوء المنهج الأسطوري من خلال الإيمان بالمعتقد، حتّى وإن رفض العقل التصديق بذلك المعتقد أو تعارضت معطياته مع المنطق في الحياة، وذلك من خلال رؤية العالم عند الطيب صالح في أكثر من نموذج واحد، بعيداً عن المقارنات الكثيرة من خلال المراجع والمصادر التي من الممكن أن تحجب الرؤية أو تحشد الكثير من الآراء فتتشابك لتخلق حجاباً حاجزاً بين رؤية الطيب صالح من وجهة نظر الباحثة، والمتلقي.

**

قائمة المصادر والمراجع

- صالح، الطيب (٢٠١٠). الأعمال الكاملة (ط٦). إعداد سعيد أحمد محمود. دار العودة.
- إبراهيم، نبيلة. نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة(ط١). القاهرة: مكتبة غريب للنشر والتوزيع.
- أبو نضال، نزيه (٢٠٠٦). التحولات في الرواية العربية (ط١). بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- الجابري، محمد عابد (٢٠٠٢). تكوين العقل العربي (ط٨). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- الحجاجي، احمد شمس الدين (١٩٨٣). الطيب صالح صانع الأسطورة. القاهرة: مجلة ألف.
- الراعي، علي (١٩٩١). الرواية في الوطن العربي(ط١). القاهرة: دار المستقبل العربي.
- زيعور، علي (١٩٧٧). الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم (ط١). بيروت: دار الطليعة.
- السكوت، حمدي (٢٠٠٠). الرواية العربية ببلوجرافيا ومدخل نقدي. القاهرة: الجامعة الأمريكية بالقاهرة.
- عبود، شوقي محمد (٢٠١٥). معجم ادباء العالم (ط١). وهران: دار المؤلف للطباعة والنشر والتوزيع.
- عجينه، محمد (١٩٩٤). موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية و دلالاتها (ط١).بيروت:دار الفارابي.

- مرتاض، عبد الملك (١٩٩٨). في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد (ديسمبر ع٢٤٠). الكويت: مجلة عالم المعرفة.
- الهواري، أحمد إبراهيم (٢٠٠٢). البطل المعاصر في الرواية المصرية (ط٤ منقحة). القاهرة: دار عين للدراسات والنشر.
- (٢٠٠٣). نقد الرواية في الأدب العربي الحديث في مصر. القاهرة: دار عين.
- هينكل، ب. روجر (٢٠٠٥). قراءة الرواية مدخل إلى تقنيات التفسير. ترجمة صلاح رزق. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر.
- وادي، طه (١٩٩٤). صورة المرأة في الرواية المعاصرة (ط٤). القاهرة: دار المعارف.
- يقطين، سعيد (٢٠٠٦). الرواية والتراث السردي (ط١). القاهرة: رؤية للدراسات والنشر.

* * *